□ عُلُوُّ هِمَّةِ القضاةِ □

« إذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحلِّ الذي لا يُنكر فضلُه ، ولا يُجهل قدْرُه ، وهو من أعلى المراتب السنيَّات ؛ فكيف بمنصب التوقيع عن ربِّ الأرض والسموات ؟!! فحقيق بمن أُقيم في هذا المنصب أن يُعِدَّ له عُدَّته، وأن يتأهَّبَ له أُهبته ، وأن يعلم قدْرَ المقام الذي أُقيم فيه ، ولا يكون في صدره حرجٌ من قول الحقِّ والصدع به ، فإن الله ناصرُه وهاديه ، وكيف وهو المنصب الذي تولَّاه بنفسه ربُّ الأرباب ، فقال تعالى : ﴿ **ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن** ... ﴾ [النساء : ١٢٧] ، وكفى بما تولَّاه الله بنفسه شرفًا وجلالةً ؛ إذ يقول في كتابه : ﴿ **يستفتونك قل الله يُفتيكم في الكلالة** ﴾ [النساء : ١٧٦] [(١)] ، وقوله تعالى : ﴿ **ذلك أمرُ الله أنزله إليكم** ﴾ [الطلاق : ٥] ، وقوله : ﴿ **والله يقضي بالحق** ﴾ [غافر : ٢٠] . وليعلم القاضي عمن ينوب في حكمه وفتواه ، وليوقن أنه مسئول غدًا وموقوف بين يدي الله .

لله ما أشرفَه من مقام ، مقام القاضي العادل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « سبعةٌ يُظلُّهم الله في ظلِّه ... » ، وذكر منهم « الإمام العادل » . رواه البخاري ومسلم ، والنسائي وأحمد .

قال ابن فرحون عن منصب القاضي : « الواجب تعظيم هذا المنصب الشريف ومعرفة مكانته من الدين ؛ فبه بُعثت الرسل ، وبالقيام به قامت السموات والأرض . وجعله النبي ﷺ من النعم التي يباح الحسد عليها؛ فقد جاء من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « لا حَسَدَ إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلكته بالحقِّ ، ورجل آتاه الله الحكمة فعلَّمها للناس وقضى

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ١/٨ طبعة دار الحديث .

بها بين الناس »[(١)] . قال الله تعالى : ﴿ **وإنْ حكمتَ فاحكمْ بينهم بالقسط إن الله يُحبُّ المقسطين** ﴾ [المائدة : ٤٢] فأيُّ شرفٍ أشرف من محبة الله »[(٢)] .

وأيُّ شرفٍ أشرف من مقام تولَّاه الأنبياء ووزراؤهم !

قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ لتحكم بين الناس بما أراك الله** ﴾ [النساء : ١٠٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ [المائدة : ٤٩] .وقال تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحقِّ ولا تتَّبع الهوى فيُضلَّك عن سبيل الله** ﴾ [ص : ٢٦] . وقال تعالى : ﴿ **وداود وسُليمان إذ يحكمان في الحرث** ﴾ [الأنبياء : ٧٨] .

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر »[(٣)] .

قال الغزالي : « إنه أفضل من الجهاد ، وذلك للإجماع مع الاضطرار إليه ؛ لأن طباع البشر مجبولةٌ على التظالم ، وقلَّ مَنْ يُنصف من نفسه ، والإمام مشغول بما هو أهمُّ منه ؛ فوجب مَنْ يقوم به ، فإن امتنع الصالحون له منه أثموا ، وأجبر الأمام أحدهم » .

وقد قال ﷺ : « يومٌ من إمام عادل أفضل من عبادة ستِّين سنةً ، وحدٌّ يُقام في الأرض أزكى فيها من مطر أربعين يومًا »[(٤)] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) تبصرة الحكام لابن فرحون ١ / ١٣ .

(٣) رواه مسلم والبخاري وأبو داود .

(٤) رواه سمويه في الفوائد ، والطبراني في الأوسط ، وضعَّفه الألباني في الضعيفة رقم (٩٨٩) ، وحسَّنه المنذري في « الترغيب » (٣/ ٣٥) ، والعراقي في تخريج « الإحياء » ١/ ٥٥ ، والشطر الثاني من الحديث حسَّنه الألباني .

لله دَرُّه من مقام تولّاه النبي وكبار الصحابة ! ولقد كان رسول الله ﷺ أوَّلَ قاضٍ في الإسلام . ولله ما أعلى هِمَّته وهو يقول : « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدٌ يدها » !!

وقد ولَّى النبي ﷺ رجالًا من الصحابة على القضاء في حياته ؛ كعمر ابن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وعتَّاب بن أُسيد .

لله ما أشرفَه وأجلَّه من مقام تهيَّبه الصالحون والعلماء !

« قال مكحول : لو خُيِّرتُ بين ضرْب عُنُقي وبين القضاء لاخترتُ ضرْب عنقي .

وقد ادعى بعض الأئمَّة الجنون حتى لا يتولَّوْه ، واجتنبه أبو حنيفة رضي الله عنه ، وصبر على الضرب والسجن حتى مات في السجن ، وقال : البحر عميق ، فكيف أعبره بالسباحة ؟ فقال أبو يوسف : البحر عميق ، والسفينة وثيق والملَّاح عالم ، فقال أبو حنيفة : فكأني بك قاضيًا »[(١)] .

وقد قُيِّدَ محمد بن الحسن الشيباني نيِّفًا وثلاثين يومًا ، أو نيِّفًا وأربعين يومًا حتى تقلَّده .

وعلى قدْر تهيُّب الأئمة منه يكون عِظَمُ جزاءِ القاضي .

قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يَمينٌ؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا »[(٢)] .

لقد جاءت دوحة الإسلام برجال وقُضاةٍ أفذاذ ؛ قوَّالين بالحقِّ ، أمَّارين

---

(١) فتح القدير لابن الهمام ٥/٤٦٠ .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن ابن عمرو .

بالمعروف ، لا يعصون الخالق في طاعة المخلوق ، وهؤلاء هم الذين تحتاج الأُمَّةُ الإسلامية إلى أمثالهم ؛ إذِ الأُمَّة لا تحتاج إلى شيء من الأخلاق احتياجَها إلى الجرأة في الحقِّ ، والشِّدَّة في العدل ، والمساواة ، وعدم التفرقة بين الكبير والصغير ، وعدم الإغضاء على تعدِّي حدود الله رهبةً من السلطان .. هؤلاء الذين تحيا بهم الأمم ، وتُشرق بهم الأيام وتعلو بهم قداسة الحقِّ ، فتطيب بهم الأيام .

قال ﷺ : « إن الله تعالى لا يُقدِّسُ أُمَّةً لا يُعطون الضعيف منه حقَّه »[(١)] .

ولله دَرُّ القاضي ، إن كان عادلًا فهو في معيَّة الله .

وقال ﷺ : « إن الله لا يُقدّسُ أُمَّة لا يأخذ الضعيف حقَّه من القويِّ وهو غير مُتعتع »[(٢)] .

ويرحم الله ابن تيمية حيث يقول : إن الله لَيُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرةً ، ويذهب بالدولة الجائرة وإن كانت مسلمة

قال ﷺ : « إن الله تعالى مع القاضي ما لم يجُرْ ، فإذا جار تبرَّأ منه وألْزَمَهُ الشيطان »[(٣)] .

وقال ﷺ : « إن الله مع القاضي ما لم يجُرْ عَمْدًا ، فإذا جار وَكَلَه

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٥٤) .

(٢) صحيح : رواه البيهقي في سننهِ عن أبي سفيان بن الحارث ، وصحَّحهُ الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٥٣) .

(٣) حسن : رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن عن ابن أبي أوفى ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٢٣) .

إلى نفسه »[١] .

وقال ﷺ : « إن الله تعالى مع القاضي ما لم يَحِفْ عمْدًا »[٢] .

وهذه صفحاتٌ مع قضاة الأُمَّة الرَّبَّانِيِّين كتبناها على عجالةٍ ، فيها من عبقهم وطِيبهم ما يُطيَّب به الطِّيب ، وما هذه الوريقات إلَّا قطرة من نَدَاهم ، ونسمة من شذاهم ، وإلَّا فالحديث عنهم وتتبُّع أخبارهم لا تفي به المجلدات بلا مبالغة ، وإذا جاء العلم فليصمت الجهل .. فأصمتُ بجهلي ، وأدَعُ القارئ مع علمهم وعدلهم .

* * *

(١) حسن : رواه ابن ماجه ، وابن حبان عن ابن أبي أوفى ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٤٢) .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وأحمد عن معقل بن يسار، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٢٤) .

□ عليٌّ بن أبي طالب أقْضَى هذه الأُمَّة □

قال عمر بن الخطاب : أقضانا عليٌّ بن أبي طالب .

وعن ابن مسعود قال : كنَّا نتحدَّث أن أقْضَى أهل المدينة علي بن أبي طالب .

عن عليٍّ : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا ، فقلتُ : يا رسول الله ، تُرسلني وأنا حديثُ السِّنِّ ، ولا عِلْمَ لي بالقضاء ؟ فقال : « إن الله سيهدي قلبك ، ويُثبِّت لسانك ، فإذا جلس بين يديْك الخَصمان ، فلا تقضينَّ حتى تسمع من الآخر كما سمعتَ من الأول ، فإنه أحْرَى أن يتبيّن لك القضاءُ » . قال : فما زلتُ قاضيًا ، أو ما شككتُ في قضاءٍ بَعْدُ[1] .

عن أبي سعيد الخُدْري ، سَمِع عمر يقول لعليٍّ – وقد سأله عن شيءٍ فأجابه –: أعوذ بالله أن أعيش في قومٍ لستَ فيهم يا أبا حسنٍ[2] .

وأخرج أحمد في المناقب ، عن عليٍّ رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فوجد أربعةً وقعوا في حفرة حُفرت ليُصطاد فيها الأسد ، سقط أولًا رجل فتعلَّق بآخر ، وتعلَّق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة ، فجرَحهم الأسد ، وماتوا من جراحته فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون ، فقال عليٌّ : أنا أقضي بينكم ، فإن رضيتم فهو القضاء ، وإلَّا حجزتُ بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ﷺ ليقضي بينكم . اجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر رُبع الدِّية وثلثها ونصفها ودِيَةً كاملة ، فللأول ربعُ الدِّية ؛ لأنه أهلَكَ مَنْ فوقه ، وللذي يليه ثلثُها ؛ لأنه أهلكَ مَنْ فوقه ، وللثالث النصف ؛ لأنه أهلكَ من فوقه ،

(١) صحيح : أخرجه أبو داود وأحمد وإسحاق ، وأبو داود الطيالسي في مسنده ، والحاكم في المستدرك وقال : صحيح الإسناد . وحسَّنه الشيخ وصيُّ الله بن محمد عباس في تحقيقه لفضائل الصحابة لأحمد ٢/٦٩٩ .

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة ٣/١٦٦ للمحب الطبري، دار الكتب العلمية .

وللرابع الدِّيةُ كاملةً . فأَبَوْا أن يرضوا ، فأتَوْا رسول الله ﷺ فلقوه عند مقام إبراهيم ، فقصُّوا عليه القصَّة فقال : « أنا أقضي بينكم » واحتبى ببردةٍ ، فقال رجل من القوم : إن عليًّا قضى بيننا . فلمَّا قصُّوا عليه القصة ، أجازه[1] .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

« روى ابن عبد البر ، أن عروة ومجاهدًا رويا أن رجلًا من بني مخزوم استعدى عمر بن الخطاب على أبي سفيان بن حرب ، أنه ظلمه حدًّا في موضعِ كذا وكذا ، وقال عمر : إني لَأَعْلَمُ الناس بذلك ، وربَّما لعبتُ أنا وأنت فيه ونحن غلمان ، فأْتِني بأبي سفيان . فأتاه به ، فقال له عمر : يا أبا سفيان ، انهض بنا إلى موضع كذا وكذا . فنهضوا ونظر عمر فقال : يا أبا سفيان ، انهض بنا إلى موضع كذا وكذا . فنهضوا ونظر عمر فقال : يا أبا سفيان ، خُذ هذا الحجر من ها هنا ، فضَعْهُ ها هنا ، فقال : والله لا أفعلُ . فقال : والله لَتَفْعلنَّ . فقال : والله لا أفعل . فَعَلاهُ بالدِّرَّة وقال : خُذه لا أُمَّ لك فضَعْهُ ها هنا ، فإنك ما علمتُ قديمُ الظُّلْم . فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال عمر ، ثم إن عمر استقبل القبلة فقال : اللَّهمَّ لك الحمد ، لم تُمتني حتى غلبتُ أبا سفيان على رأْيه ، وأذللتَهُ لي بالإسلام . قال : فاستقبل القبلة أبو سفيان وقال : اللهم لك الحمدُ إذْ لم تُمتني حتى جعلتَ في قلبي من الإسلام ما أذِلَّ به لعمر »[2] .

شُرَيْح القاضي : يحكم على أمير المؤمنين فيُسلم اليهوديُّ :

أَقْضَى الناسِ ، كما قال عليُّ بن أبي طالب .

---

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة صـ١٦٩ ، أخرجه أحمد في المناقب .

(٢) المغني على مختصر الخرقي ١٠ / ٤٩ .

مرَّ عليٌّ بن أبي طالب بسوق الكوفه يومًا ، فإذا به يمرُّ أمام يهوديٍّ يعرض درعًا للبيع ، فلمَّا رآها أمير المؤمنين عرف أنها درعه التي فَقَدَها منذ سنين طويلة ، وعلامتها المميّزة عليها ، فقال لليهودي : إن هذه الدرع درعي . فقال اليهودي : بل هي درعي ، وأمامَك القضاء . ووقف أمير المؤمنين بجانب اليهودي أمام القاضي شُريح ، فقال شريح : البيِّنة على من ادَّعى . فقال عليٌّ : إن الدرع درعي وعلامتها كيت وكيت ، وهذا هو الحسن بن علي شاهدي على ذلك . فقال شريح : يا أمير المؤمنين ، إني أعلم أنك صادق ، ولكن ليس عندك بيِّنة ، وشهادة الحسن لا تنفعك ؛ لأنه ابنك ، وقد حكمْنا بالدرع لليهودي .

فهزَّ هذا الموقف اليهودي فقال : والله إن هذا الدين الذي تحتكمون إليه لهو الناموس الذي أُنزل على موسى ، وإنه لدين حقّ ، ألا إن الدرعَ درعُ أمير المؤمنين ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله(١) .

الإمام مسروق بن عبد الرحمن :

« عن محمد بن المنتشر ، أن مسروقًا كان لا يأخذ على القضاء أجرًا ، ويتأوَّل هذه الآية : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ...** ﴾ الآية ، [التوبة : ١١١] .

وعن الشعبي أن مسروقًا قال : لأن أقضي بقضية وَفْقَ الحقِّ أحبُّ إليَّ من رِباطِ سنةٍ في سبيل الله . أو قال : مِن غزوِ سنةٍ »(٢) .

---

(١) كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء ، لمحمد فهمي عبد الوهاب صـ٧٦ - ٧٧ ، دار الاعتصام .

(٢) السير ٤/٦٨ ، ٦٩ .

شَرِيك بن عبد الله قاضي الكوفة :

لقـد كان القاضي شريك من الرَّبَّانيِّين الذين هم صور الحق فـي مناصب القضـاء ، لا يطمـع في جـورهم سلطان ، ولا ييأس من عدلهم إنسـان .. أيّ إنسان .

« روى عمر بن هياج بن سعيد قال : أتت امرأةٌ يومًا شريك بن عبد الله قاضـي الكوفة وهو في مجلس الحُكم ، فقالت : أنا بالله ثـم بالقاضي . قـال : مَنْ ظَلَمَكِ ؟ قـالت : الأمير موسى بن عيسى ابنُ عمِّ أمـير المـؤمنين ؛ كان لي بستان على شاطئ الفـرات فيه نخل ، ورثتُهُ عـن أبي ، وقاسمتُ إخوتي ، وبنيـتُ بيني وبينهم حائطًا ، وجعلتُ فيه رجُلًا فارسيًّا يحفظ النخلَ ويقوم به ، فاشترى الأميرُ موسى بن عيسى من جميع إخوتي وساوَمَنِي ، ورغَّبني فلم أبِعْهُ ، فلمَّا كانت هـذه الليلةُ ، بعث خمسمائة غلام وفاعل ، فاقتلعوا الحـائط ، وأصبحـت لا أعرف من نخلي شيئًا ، واختلطَ بنخل إخوتي . فقال شريك لحاجبه : يا غلام ، أحضِرْ ورقة . ثم خَتَمهَا بخاتمه وقال لها : امْضي إلى بابه بالختم حتى يحضُر معك . فجاءت المرأة بالورقة المختومة ، فطرقتْ باب الأمير فأخذها الحاجبُ منها ، ودخل بها على موسى وقال له : قد أعْدَى القاضي عليك ، وهذا ختْمُه . فقال موسى : ادْعُ لي صاحبَ الشرطة . فدعا به فقال له : امضِ إلى شريكٍ وقُل : يا سبحان الله ! ما رأيتُ أعْجَبَ من أمـرك ؛ امرأةٌ ادَّعت دعوى لم تَصِحّ ، أعْدَيتَها عليَّ ؟! فقـال صاحب الشرطة : إنْ رَأَى الأميرُ أن يُعْفِيَني من ذلك ؟ فقال الأمـير : امْـضِ ، وَيْلَكَ !! فخـرجَ صاحبُ الشرطة وقال لغلمانه : اذهبوا وأدْخِلُوا إلـى حَبْس القاضي بساطًا وفراشًا وما تدعو الحاجةُ إليه في السجن !! ثم مضى إلى شريك ، فلمَّا وقفَ بين يديه أدَّى الرسالة ، فقال القاضي لغلام الحبْس : خُذ بيده فضَعْهُ في الحبس . فقال صاحـب الشرطة : والله قد علمتُ أنك تحبسُني ، فقـدَّمتُ ما أحـتاج إليه إلى السـجن . وبلغ موسى بن عيسى الخبرُ ، فوجَّـه

الحاجبَ إلى شريك ، وقال له : رسولٌ أدَّى رسالةً ، أيّ شيءٍ عليه ؟! فقال شريك : اذهبوا به إلى رفيقه ، إلى الحبس . فحُبِس ، فلمَّا صلَّى الأميرُ موسى العصر ، بعثَ إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي ، وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك ، وقال لهم : امضوا إلى القاضي ، وأبْلِغُوهُ السلام ، وأعْلِمُوهُ أنه استخفَّ بي وأنّي لستُ كالعامَّة . فمضَوْا إليه وهو جالسٌ في مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة ، فلمَّا انقضى كلامُهم قال لهم : ما لي أراكم جئتموني في غَثَرَةٍ[1] من الناس فكلّمتموني . ثم التفت حوله ونادَى : مَنْ ها هنا من فتيان الحيّ ؟ فأجابه جماعة من الفتيان ، فقال لهم : ليأخُذْ كلُّ واحدٍ منكم بيد رجُلٍ من هؤلاء ، فيذهب به إلى الحبس . ثم وجَّه الكلام إلى وجوه الكوفة وهم يُسحبون فقال : ما أنتم إلَّا فتنة ، وجزاؤكم الحبس . فقالوا له : أجادٌّ أنت ؟! قال : حقًّا ، حتى لا تعودوا برسالة ظالم . فحَبَسَهم جميعًا وعلم موسى بن عيسى ، فركب في الليل إلى باب السجن ، وفَتَح الباب وأخرجهم كُلَّهم ، فلمَّا كان الغد ، وجلسَ شريك للقضاء ، جاءه السَّجَّان فأخبره ، فدعا شريك بالقِمَطْرِ فختَمَهُ ، ووجَّه به إلى منزله ، وقال لغلامه : الْحَقْ بثقلي إلى بغداد ، والله ما طلبْنا هذا الأمر منهم ، ولكنْ أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلَّدْناه لهم. ومضى نحو قنطرة الكوفة في الطريق إلى بغداد. وبلغ الخبر موسى بن عيسى، فركب في موكبه ولحقَهُ، وجعل يُناشده الله ويقول : يا أبا عبد الله ، تثبَّتْ ، انظُر ؛ إخوانك تحبسهم !! دَعْ أعواني . قال شريك : نعم ؛ لأنهم مَشَوْا لك في أمرٍ لم يَجُزْ لهم المشيُ فيه ، ولست ببارحٍ ، أو يُرَدُّوا جميعًا إلى الحبس ، وإلَّا مضيتُ إلى أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه ممَّا قلدني . فأمر موسى بَرَدِّهم جميعًا إلى الحبس ، فقال شريك لأعوانه : خُذُوا بلجام دابَّة الأمير بين يديَّ إلى مجلس الحكم . فمرُّوا بين يديه حتى أُدخل المسجد وجلسَ في مجلس

---

(١) في ظلمة وغشمة .

القضاء . وجاءت المرأةُ المُتظلِّمةُ فقال لها : هذا خَصمُكِ قد حضر فقال موسى وهو إلى جانب المتظلِّمة بين يديه : قبل كلِّ أمرٍ ، أنا قد حضرتُ ، أولئك يُخرجون من الحبس . فقال شريك : أمَّا الآن فنعم ، أخرِجوهم من الحبس . وقال شريك للأمير : ما تقول فيما تدَّعِيهِ هذه المرأة ؟ وأجاب موسى : صدقتْ . قال : تردُّ ما أخذتَ منها ، وتبني حائطًا سريعًا كما كان . وقال موسى : أفْعَلُ ذلك كلَّه . واتَّجه شريك نحو المرأة وقال : أَبَقِيَ لكِ عليه دعوى ؟ قالت: بيت الفارسيِّ ومتاعُه . قال موسى : ويُرَدُّ ذلك كلُّه . وقال شريكٌ : أَبَقِيَ لكِ عليه دعوى ؟ قالت : لا ، وباركَ الله عليك وجزاك خيرًا . وأمر شريك المرأة بالانصراف ، فانصرفتْ ، فلمَّا فرغ قام ، وأخذ بيد موسى ابن عيسى ، وأجلسه في مجلسه . وقال : السلام عليك أيُّها الأمير ، أتأمرني بشيءٍ ؟ قال الأمير: أيُّ شيءٍ آخر ؟! وضحك. فقال له شريك: أيُّها الأمير ، ذلك الفِعْلُ حقُّ الشرع ، وهذا القول - الآن - حقُّ الأدب . فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول : مَنْ عظَّم أمر الله ، أذلَّ الله له عظماء خلْقه »[1] .

كم اعتزَّ الحقُّ بأهله واعتزُّوا به ، وانتصرَ بهم وانتصروا به ، وباءَ أعداؤه بِذِلَّةِ العبيد وهم يَضَعُون على رؤوسهم تيجان الملوك .

الواقِديّ مات وليس له كفن :

تولَّى الواقديُّ محمدُ بن عمر القضاءَ للرشيد وللمأمون ، و لم يزل قاضيًا حتى مات .

قال الواقدي رحمه الله : صار إليَّ من السلطان ستمائة ألف درهم - يعني

(١) كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء ، لمحمد فهمي عبد الوهاب صـ ٨٢ - ٨٦ ، دار الاعتصام .

من عطاءات متكرِّرة - ما وجبَتْ عليَّ فيها الزكاة . قال عباس الدّوري : مات الواقديُّ وهو على القضاء ، وليس له كفنٌ ، فبعث المأمون بأكفانه ، رحمة الله عليه .

أحاديثُ لو صِيغَتْ لَألْهَتْ بحُسْنِهَا عن الوَشْيِ أوْ شُمَّتْ لَأَغْنَتْ عن المِسْكِ

القاضي الأَبيوَرْدِيُّ :

أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن البغدادي الشافعي .

« سكن بغداد ، وولي بها القضاء على الجانب الشرقي بأسره ومدينة المنصور . كان يصوم الدهر ، وكان غالب إفطاره على الخبز والملح . وكان فقيرًا يُظهر المروءة ، ومكث شتوةً كاملة لا يملك جبَّةً يَلْبَسها ! وكان يقول لأصحابه : بي عِلَّةٌ تمنعني عن لُبس المحشو ! فكانوا يظُنُّونه يعني المرض ، وإنما كان يعني بذلك الفقر ، ولا يُظهره تَصَوُّنًا ومروءة »[1] .

مفخرة القضاة : سُلَيْم بن عِتْر ، ما خَتَمَ أحدٌ القرآنَ في ليلةٍ أكْثَرَ ممَّا خَتَمَ :

قاضي مصر وواعظها وقاصُّها وعابدها : سُلَيم بن عِتْر التّجيبي . كان يقرأ القرآن كلَّ ليلةٍ ثلاث مراتٍ .

وهو أوُلُ من قصَّ بمصر ، وهو أول قاضٍ بمصر نَظَرَ في الجراح ، وأولُ القضاة بمصر سجَّل سجلًّا بقضائه[2] .

قاضي المدينة الإمام سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف :

« سردَ الصوم قبل أن يموت بأربعين سنة .

---

(١) تاريخ بغداد ٥/٥١ .

(٢) كتاب « تاريخ ولاة مصر وتسمية قُضاتها » لمحمد بن يوسف الكِنْدِي ، صـ٢٢٩ - ٢٣٣، مؤسسة الكتب الثقافية .

وكان شعبة إذا ذكَر سعد بن إبراهيم يقول : حدَّثني حبيبي سعد بن إبراهيم ، يصوم الدهر ، ويختم القرآن في كلِّ يومٍ وليلة .

وعن ابن أبي ذئب : قضى سعد بن إبراهيم على رجُلٍ برأيِ ربيعة ، فأخبرتُهُ عن رسول الله ﷺ بخلاف ما قضى به ، فقال سعدٌ لربيعة : هذا ابنُ أبي ذئب ، وهو عندي ثقةٌ ، يُحدِّث عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيتُ به . فقال له ربيعة : قد اجتهدتَ ، ومضى حُكمُك . فقال سعد: واعجبًا !! أُنفذ قضاء سعد بن أم سعد ، وأردُّ قضاءً قضى رسولُ الله ﷺ ؟! بل أردُّ قضاء سعد ، وأُنفذ قضاء رسول الله ﷺ . ودعا بكتابِ القضيَّة ، فشقَّه وقضى للمقضي عليه .

واختصم عند ابن هشام المخزومي أمير المدينة - وسَعدٌ عنده يومًا - ولدٌ لمحمد بن مسلمة وآخَرُ من بني حارثة ، فقال ابنُ محمد : أنا ابنُ قاتِل كعب بن الأشرف. فقال الحارثيُّ : أما والله ، ما قُتِلَ إلَّا غدْرًا . فانتظر سعدٌ أن يُغيِّرها الأمير ، فلم يفعل حتى قاما . فلمَّا استقضى سعد قال لخادمه : أُعطي الله عهدًا لَئِن أُفلِت الحارثيُّ منك ؛ لأُوجِعنَّك . قال شعبة : فصلَّيتُ معه الصُّبح ثم جئتُ به سعدًا ، فلمَّا نظر إليه سعد ، شقَّ القميص ثم قال : أنت القائل : إنما قُتل ابن الأشرف غدرًا . ثم ضَرَبَهُ خمسين ومائة سوط ، وحَلَق رأسه ولحيته وقال : والله لأُقَوِّمَنَّك بالضرْب ما كان لي عليك سلطان .

وفي مرض الموت دخلَ عليه ابن هرمز وجماعةٌ يعودونه ، فاغرورقتْ عينا ابن هرمز ، فقال له سعد : ما يُبكيك ؟ فقال : والله لكأني بقائلةٍ غدا تقول : واسعداه للحقِّ ولا سعد . قال : والله لئن قلتَ ذلك ، ما أخذني في الله لومةُ لائمٍ منذ أربعين سنة . ثم قال : أليس تعلم أنَّك أحبُّ شيءٍ إليَّ . يعني القرآن .

قال ابن سعد بن إبراهيم : كان أبي يحتبي ، فما يحلُّ حبوتَهُ حتى

يقرأ القرآن »[1] .

قاضي المدينة حَرَم رسول الله ﷺ ومُفْتِيها في عصره ، يحيى بن سعيد بن قيس النجاري :

تلميذ الفقهاء السبعة . كان هشام بن عروة يقول فيه : حدَّثني العدْلُ الرَّضِيُّ الأمين ، عدْلُ نفسي عندي ، يحيى بنُ سعيد .

« كان رحمه الله خفيف الحال ، فاستقضاه المنصور ، فلم يتغيَّر حالُه ، فقيل له في ذلك ، فقال : مَنْ كانت نفْسُه واحدةً ، لم يُغيِّره المال »[2] .

قاضي القضاة بمصر بكَّار بن قُتَيْبَة :

قال أحمدُ بن سهل الهرويُّ : كنت ساكنًا في جوارِ بكّارِ بن قتيبة ، فانصرفتُ بعد العشاء ، فإذا هو يقرأ : ﴿ **يا داودُ إنا جعلْناك خليفةً في الأرض فاحكُم بين الناس بالحقِّ ولا تَتَّبع الهوى فيُضلَّك عن سبيل الله** ﴾ ، قال : ثم نزلتُ في السَّحَر ، فإذا هو يقرؤها ويبكي ، فعلمتُ أنه كان يتلوها من أول الليل . قال الذهبي : كان عظيم الحُرمة ، وافر الجلالة ، من العلماء العاملين .

جمع أحمدُ بن طولون العلماء والأعيان ، وقال : قد نكثَ الموفّق أبو أحمد – وليّ العهد – بأمير المؤمنين ، فاخلعوه من العهد . فخلعوه ، إلَّا بكار بن قتيبة . وقال : أنت أوردت عليَّ كتاب المعتمد بتوليته العهد ، فهات كتابًا آخر منه بخلْعه. قال: إنه محجورٌ عليه ومقهور. قال: لا أدري. فقال له: غرَّك الناس بقولهم: ما في الدنيا مِثْل بكَّار ، أنت قد خَرِفتَ . وقيَّده وحَبَسَه وأخذَ منه جميع عطائه من سنين ، فكان عشرة آلاف دينار ، فقيل : إنَّها وُجدتْ بختومها وحالها . وبلغَ ذلك الموفَّق ، فأمر بلعْن ابن طولون على المنابر .

---

(١) السير ٥/٤١٨ – ٤٢١ .

(٢) السير ٥/٤٧٤ – ٤٧٥ .

ونقَل القاضي ابن خلِّكان ، أن ابن طولون كان يُنفذ إلى بكّار في العام ألف دينار ، سوى المقرَّر له ، فيتركها بختْمها ، فلمَّا دعاه إلى خلْع الموفَّق ، طالَبَهُ بجملة المال ، فحَمَلَهُ إليه بختومه ثمانية عشر كيسًا ، فاستحيا ابنُ طولون عند ذلك . وكان بكَّار يُحدِّث من طاقة السجن ؛ لأن أصحاب الحديث طلبوا ذلك من أحمد ، فأذِنَ لهم على هذه الصورة .

وكان بكَّار تاليًا للقرآن ، بكَّاءً صالحًا دَيِّنًا .

قال الطحاويُّ : كان بكار على نهاية من الحمد في ولايته .

وكان بكَّار وهو في حبسه يَلْبَس ثيابه وقت صلاة الجمعة ، ويمشي إلى الباب ، فيقول له الموكّلون به : ارجع . فيقول : اللهم اشْهَدْ .

ولمَّا اعتلَّ أحمد بن طولون راسل بكَّارًا ، وقال : إنَّا رادُّوك إلى منزلك ، فأجبني . فقال : قل له : شيخٌ فانٍ ، وعليلٌ مُدْنَف ، والمُلتَقى قريبٌ ، والقاضي اللهُ عز وجل . فأبلغها الرسولُ أحمدَ ، فأطرق ، ثم أقبل يُكرِّر ذلك على نفسه ، ثم أمر بنقْله من السجن إلى دارٍ اكتُرِيَتْ له ، وفيها كان يُحدِّث ، فلمَّا مات الملك قيل لأبي بكرة بكّار : انصرِفْ إلى منزلك . فقال : هذه الدار بأُجرةٍ وقد صلحت لي . فأقام بها .

ولما مات غُسِّل ليلًا ، وكثُر الناس ، وشيَّعه خلْقٌ عظيم أكْثَر ممَّن يشهد صلاة العيد ، فلم يُدفَن إلى العصر [1] .

القاضي الإمام أبو بكر ابن الباقِلَّاني :

قبَّله الدارقطنيُّ يومًا وقال : هذا يردُّ على أهل الأهواء باطلَهم . ودعا له .

صنَّف في الردِّ على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهميَّة والكَرَّاميَّة .

---

(١) السير ١٢/٥٩٩ - ٦٠٤ ، وولاة مصر وقضاتها صـ٣٦١ - ٣٦٢ .

« أرسله الملكُ عضُد الدولة في رسالةٍ إلى ملك الروم ، فلمَّا ورد مدينته عُرِّف الملك خبَره ، وبيّن له محلّه من العلم وموضعه ، فأفْكَرَ الملك في أمره ، وعلمَ أنه لا يُكَفِّرُ له إذا دخلَ عليه ، كما جرى رسمُ الرعية أن تُقبِّل الأرض بين يدي الملوك ، ثم نتجتْ له الفكرة أن يَضَعَ سريرَهُ الذي يجلس عليه ، وراء باب لطيف ، لا يُمكِّن أحدًا أن يدخُل منه إلَّا راكعًا ؛ ليدخل القاضي منه على نلك الحال ، فيكون عِوَضًا عن تكفيره بين يديه ، فلمَّا وُضع سريره في ذلك الموضع ، أمر بإدخال القاضي من الباب ، فسار حتى وصل إلى المكان ، فلمَّا رآه تفكَّر فيه ثم فَطِنَ بالقصَّة فأدار ظهره ، وحنا رأسَهُ راكعًا ، ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه ، قد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه ، ثم رفع رأسه ونَصَبَ ظهره ، وأدار وجهَهُ حينئذٍ إلى الملك ، فعَجِبَ من فطْنته ، ووقعتْ له الهيبةُ في نفْسه »(١) .

« قال أبو بكر الباقلّاني لراهبهم : كيف الأهل والأولاد ؟ فقال الملك : مَهْ ! أَمَا علمتَ أن الراهب يتنزَّهُ عن هذا ؟ فقال : تُنزِّهونه عن هذا ، ولا تُنَزِّهون ربَّ العالمين عن الصاحبة والولد »(٢) .

قال ابن كثير عن مُقابلة ابن الباقلاني لملك الروم : « يُقال : إن الملك أحضر بين يديه آلة الطَّرب المُسمَّاة بالأُرْغُل ، ليستفزَّ عقلَهُ بها ، فلمَّا سمعها الباقلَّانيُّ خاف على نفسه أن يظهر منه حركة ناقصة بحضرة الملك ، فجعل لا يألو جهدًا أن جَرَح رِجلَهُ حتى خرج منها الدمُ الكثير ، فاشتغل بالألم عن الطرب ، ولم يظهر عليه شيءٌ من النقص والخِفَّة ، فعَجِبَ الملكُ من ذلك ، ثم إن الملك استكشفَ الأمر فإذا هو قد جرحَ نَفْسَه بما أشغله عن الطرب ،

---

(١) تاريخ بغداد ٥/٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٢) تبيين كذب المفتري ، لابن عساكر صـ ٢١٨ ، ٢١٩ ، وسير أعلام النبلاء ١٧/١٩١ - ١٩٢ .

فتحقَّق الملكُ وُفُورَ همَّته وعلوّ عزيمته ، فإن هذه الآلة لا يسمعها أحدٌ إلَّا طَرِبَ ، شاءَ أم أبى .

وقد سأله بعضُ الأساقفة بحضرةِ ملكهم فقال : ما فعلتْ زوجةُ نبيِّكم ؟ وما كان من أمرها بما رُمِيَتْ به من الإفك ؟ فقال الباقلاني مُجيبًا له على البديهة : هما امرأتان ذُكِرَتا بسوءٍ : مريم وعائشة ، فبرَّأهما الله عزَّ وجلَّ ، وكان عائشة ذات زوجٍ ولم تأتِ بولدٍ ، وأتتْ مريم بولدٍ ولم يكن لها زوج - يعني أن عائشة أَوْلَى بالبراء من مريم - وكلاهما بريئةٌ مما قيل فيها ، فإن تطرّق في الذِّهن الفاسد احتمال ريبةٍ إلى هذه ، فهو إلى تلك أسْرَعُ ، وهما بحمد الله منزَّهتان مبرَّأتان من السماء بوحي الله عزَّ وجلَّ ، عليهما السلام »[1] .

قال الذهبي في السير (١٩٣/١٧) : « كان سيفًا على المعتزلة والرافضة المشبِّهة ، وغالب قواعده على السُّنَّة ، وقد أمر شيخ الحنابلة أبو الفضل التميمي مُناديًا يقول بين يدي جنازته : هذا ناصر السُّنَّة والدِّين ، والذَّابُّ عن الشريعة ، هذا الذي صنَّفَ سبعين ألف ورقةٌ . ثم كان يزور قبره كلَّ جمعة » .

قال فيه السّكريُّ :

قاضي إذا التبس القضاءُ على الحِجَى ... كَشَفَتْ له الآراءُ كُلَّ مُغَيَّبِ
لا يستريحُ إذا الشكوكُ تَخَالَجَتْ ... إلَّا إلى لُبٍّ كريم المنصبِ
وَصَلَتْهُ هِمَّتُهُ بأَبْعَدِ غايةٍ ... أعْيَا المُرِيدَ لها سبيلُ المطلبِ
أَهْدَى له ثَمَرَ القلوبِ مُحِبُّهُ ... وحَباهُ حُسْنُ الذِّكْرِ مَنْ لم يُحْببِ
ما زال يَنصُرُ دِينَ أحمد صادِعًا ... بالحقِّ يهدي للطريقِ الأصْوَبِ
اعْذُرْ حَسُودَكَ في الذي أوْلَيْتَهُ ... إذ فاز منه بجِدٍّ قدْحٍ أَخْيَبِ
فلقد حَلَلْتَ مِنَ العَلاءِ بِذِرْوَةٍ ... صمَّاءَ تُسفِرُ عن حمى المُسْتَصْعَبِ

---

(١) البداية والنهاية ٣٧٣/١٣ - ٣٧٤ .

أَنْصَبْتَ نَفْسَكَ للثناءِ فَحُزْتَهُ إن الثناءَ عَدُوُّ مَنْ لم يَنْصَبِ[(١)]

ورثاه أحدهم فقال :

انظُرْ إلى جبلٍ تمشي الرِّجالُ به وانظرْ إلى القبرِ ما يحوي من الصَّلَفِ
انظُرْ إلى صارمِ الإسلام مُنْغَمِدًا وانظر إلى دُرَّةِ الإسلام في الصَّدَفِ[(٢)]

القاضي الأمير الإمام القائد أسد بن الفرات : فاتح جزيرتي قُوصرة وصقلية ، ومصنِّف كتاب « الأسدية » :

كان رحمه الله يقول : « أنا أسد ؛ والأسد خير الوحوش، وأبي فرات ؛ والفرات خير الماء ، وجدِّي سنان ؛ والسنان خير السلاح » .

المجاهد الصابر ، التقي النقي ، قاضي القضاة ، وشيخ الإفتاء ، قائد القضاة ، وقاضي القادة ، القائد الفاتح ، البطل الشهيد .

ولَّاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب قضاءَ «إفريقية» سنة ثلاث ومائتين هجرية ، فأقام في القيروان يقضي بين أهلها بالكتاب والسنة حتى خرج لغزو صقلية وطرد الروم منها .

ولما أمر زيادة الله بالاستعداد لغزو صقلية ، سارع أسد إلى الخروج ، فكان زيادة الله يتغافل عن ذلك ، فقال أسد : « وجدوني رخيصًا فلم يقبلوني ، وقد أصابوا من يُجري لهم مراكبهم من النواتية[(٣)] ، فما أحوجهم إلى مَن يُجريها لهم بالكتاب والسنة » .

وحين رأى زيادة الله إصرارَ أسد على الخروج مجاهدًا في سبيل الله ، أمَّره على تلك الغزوة ، وعزم عليه في ذلك ، فقال أسد : « أصلح الله الأمير .. من

---

(١) ، (٢) تاريخ بغداد ٣٨٣/٥، ٣٨٤ .
(٣) النواتي : جمع نوتي ، وهو الملَّاح في البحر .

بعد القضاء والنظر في حلال الله تعالى وحرامه ، تعزلني وتولِّيني الإمارة ؟! » .
فقال زيادة الله : « إني لم أعزلك عن القضاء ، بل ولَّيتُك الإمارة ، وهي أشرف من القضاء، وأبقيتُ لك اسم القضاء؛ فأنت قاض أمير». فخرج أسد على ذلك، ولم تجتمع إمارة الحرب والقضاء ببلدٍ في إفريقية إلا لأسد وحده .

وخرج أسد على رأس جيشه في عشرة آلاف رجل ، منهم ألف فارس حملتهم مائة سفينة ، وخرج لتوديع أسد وجوه أهل العلم وجماعة الناس ، وقد أمر زيادة الله ألَّا يبقى أحد من رجاله إلا شيَّعه ، وقد صهلتِ الخيل ، وضربت الطبول ، وخفقت البنود ، فقال أسد : « يا معشر الناس ، ما بلغتُ ما ترون إلا بالأقلام ، فأجهدوا أنفسكم فيها ، وثابروا على تدوين العلم ، تنالوا به الدنيا والآخرة » .

وفي طريقه لفتح صقلية فتح أسد جزيرة « قوصرة » بعد حصارها .

وفي صقلية نفذ أسد على رأس جنده لمقاتلة الروم الذين اجتمعوا حول صاحب صقلية « بلاته » ، ودار القتال في ميدان بين « بلرم » و « مازر » سمِّي باسم بلاطة فيما بعد ، وكان الصقلِّيون يفوقون المسلمين عَددًا وعُددًا ؛ فقد كانوا مائة ألف وخمسين ألفا .

وكان أسد في هذه المعركة يحمل اللواء بيد ، والسيف بيده الأخرى ، وهو يدعو الله ، فحمل على الروم ، وحمل الناس معه ، وهُزِم « بلاته » وجرح في هذه المعركة ، واستولى المسلمون على عِدَّة حصون من الجزيرة ، وانتصر المسلمون على جيش الروم المحلِّي في صقلية .

وحاصر أسد « سرقوسة » ، ومات وهو محاصرٌ لها ، وأكمل الفتح تلميذه محمد بن أبي الحواري .

يرحم الله الأسد القاضي الشهيد ؛ لمَّا أصابت المسلمين مجاعة في صقلية ، عرض أحد زعمائهم على أسد أن يرجع بالمسلمين إلى « إفريقية » ، فقال أسد :

« ما كنتُ لأكسر غزوة على المسلمين ، وفي المسلمين خيرٌ كثير »[١] .

القاضي نصر بن ظريف اليحصبي :

« حكى أبو عمر بن عبد البر : أن حبيبًا القرشي دخل على الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، فشكا إليه القاضي نصر بن ظريف اليحصبي ، وذكر أنه يريد أن يُسجِّل عليه في ضيعة يقيم فيها ، وادَّعى عليه الاغتصاب لها ، ولاذ بالأمير من إسراع القاضي إلى الحكم عليه من غير تثبُّت . فأرسل الأمير إليه وكلَّمه في حبيب ، ونهاه عن العجلة عليه ، فخرج ابن ظريف من يومه ، وعمل بغير ما أراد الأمير ، وأنفذ الحكم ، وبلغ الخبر حبيبًا ؛ فدخل إلى الأمير متَّغرًا غيظًا ، فذكر له ما عمله القاضي ، ووصفه بالاستخفاف بأمره والنقض له ، وأغراه ؛ فغضب الأمير على القاضي واستحضره ، فقال له : من أمرك أن تنفذ حكمًا ، وقد أمرتُك بتأخيره والأناة به ؟ فقال له : قدَّمني عليه رسول الله ﷺ ؛ فإنما بعثه الله بالحق؛ ليقضي به على القريب والبعيد والشريف والدنيء . وأنت أيها الأمير ، ما الذي حملك على أن تتحامل لبعض رعيَّتك على بعض ، وأنت تجد مندوحة بأن ترضي مِن مالك مَن تُعنى به ، وتمدَّ الحق لأجله ؟ فقال له : جزاك الله يا ابن ظريف خيرًا . وخرج القاضي ، فدعا بالقوم الذين صارت الضيعة إليهم بالاستحقاق ، وكلَّمهم فوجدهم راضين ببيعها إن أجزل لهم الثمن ، فعقد فيها البيع معهم ، وصارت إلى حبيب ، فكان بعد ذلك يقول : جزى الله ابن ظريف عنا خيرًا ، كانت بيدي ضيعة حرام ، فجعلها حلالًا .

وكان هذا القاضي من زهده وورعه إذا شُغِل عن القضاء يومًا واحدًا ،

---

(١) بين العقيدة والقيادة . للواء محمود شيت خطاب . ٢٥٣ - ٢٧٧ ، طبع دار الفكر .

لم يأخذ لذلك اليوم أجرًا »[1] .

قاضي قرطبة المصعب بن عمران ، ورَدّه الضَّيْعَةَ على الأيتام :

عُرف هذا القاضي رحمه الله بصلابته في القضاء ، وبتنفيذه الأحكام يؤيِّده الأمير حكم بن هشام وأبوه ، ولا يسمح فيه بمقال ، ويجيز أفعاله ، وينفذ أحكامه ، وإن وقعت بغير المحبوب منه .

« وفي كتاب الحسن بن محمد : إن العباس بن عبد الملك المرواني اغتصب رجلًا من أهل جيَّان ضيعته ، فبينما هو يُنازعه فيها ، هلك الرجل وترك أيتامًا صغارًا ، فلمَّا ترعرعوا وسمعوا بعدل القاضي مصعب وقضائه ، قدموا قرطبة ، وأنهوا إليه مظلمتهم بالعباس ، وأثبتوا ما وجب إثباته ، فبعث القاضي إلى العباس ، وأعلمه بما دفعه إليه الأيتام ، وعرَّفه بالشهود عليه ، وأعذر إليه فيهم ، وأباح له المدافع ، وضرب له الآجال . فلمَّا انصرمت ، ولم يأت بشيء أعلمه أنه ينفذ الحكم عليه ، ففزع العباس إلى الأمير الحكم ، وسأله أن يوصي إلى القاضي بالتخلي عن النظر في قضيته ؛ ليكون هو الناظر فيها . فأوصل إليه الأمير ذلك مع خليفة له من أكابر فتيانه ، فلمَّا أدَّى الوصية إليه ، اشتدَّت عليه ، وقال : « إن القوم قد أثبتوا حقَّهم ، ولزمهم في ذلك عناءٌ طويل ، ونَصَبٌ شديد ؛ لِبُعْدِ مكانهم ، وضعْف حالتهم . وفي هذا على الأمير - أعزَّه الله - ما فيه ، فلستُ أتخلَّى عن النظر وإنفاذ الحكم لوجهه ، فليفعل الأمير بعده ما يراه صوابًا من رأيه » . فرجع الرسول إلى الأمير بجوابه ، فوجم منه ، وجعل العباس يغريه بمصعب ، ويقول : قد أعلمتُ الأمير بشدَّة استخفافه وغلطه في نفسه ، وتقديره له أن الحكم له ولا حكم للأمير عليه . وكرَّر الأمير الطلب إليه أن يكفَّ عن إصدار الحكم في القضية ، فأمر القاضي الرسول بالقعود ،

(١) تاريخ قضاة الأندلس صـ٤٤ - المكتب التجاري للطباعة والنشر . لبنان .

وحكم للقوم بالضيعة ، ثم أنفذ الحكم وأشهد عليه ، وقال : قد حكمتُ بالعدل ، فلينقضه الأمير إن قدر . فاستشاط غيظًا ، وأطرق مليًّا .. وأقرَّ حُكْم القاضي »[1] .

القاضي غوث بن سليمان :

« قال غوث بن سليمان : بعث إليَّ أمير المؤمنين أبو جعفر ، فحُملتُ إليه ، فقال لي : يا غوث ، إن صاحبتكم الحميرية خاصمتني إليك في شروطها . قلتُ : أيرضى أمير المؤمنين أن يحكِّمني عليه ؟ قال : نعم . فقلت : إن الأحكام لها شروط أفيحتملها أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . قال : يأمرها أمير المؤمنين أن تُوكِّل وكيلًا ، وتُشْهِد على وكالته خادمَيْن حُرَّيْن ، يُعدِّلهما أمير المؤمنين على نفسه . فجاء الوكيل ، فقلت : إن أمير المؤمنين يساوي الخصم في مجلسه . قال : فانحطَّ عن فراشه وجلس مع الخصم ، ودفع إليّ الوكيل بكتاب الصداق فقرأته عليه ، فقلتُ : يقرُّ أمير المؤمنين بما فيه ؟ قال : نعم . قلت : أرى في الكتاب شروطًا مؤكَّدة بها تمَّ النكاح بينكما ، أرأيت يا أمير المؤمنين لو خطبت إليهم ولم تشترط لهم هذا الشرط ، أكانوا يُزَوِّجونك ؟! قال : لا . قلت : فبهذا الشرط تمَّ النكاح ، وأنت أحقُّ مَن وفَّى لها بشرطها . قال : علمتُ إذ أجلستني هذا المجلس أنك ستحكُم عليَّ »[2] .

القاضي أبو عُبيد بن حربويه :

«قاضي مصر المشهور بالعدل والهيبة، كان أمير مصر يركب إلى داره ولم يكن هو يركبُ إلى دار الأمير، ولم يكن يُؤمِّرُ أحدًا، بل إذا ذكر (تكين) أمير مصر قال أبو منصور : تكين . ولم يقل : الأمير . ومن شدَّته في إنفاذ الشريعة أن مؤنسًا الخادم – وكان أكبر أمراء الخليفة المقتدر وكان يُخطب له على المنابر مع الخليفة – ورد

(١) تاريخ قضاة الأندلس صـ٤٦ – ٤٧ .

(٢) كتاب ولاة مصر وقضاتها ٣٧٥ – ٣٧٦ . للكندي .

إلى مصر في عسكر كثير ، فعرض له ضعْف ، فأرسل إلى القاضي يطلب منه شهودًا يُشهدهم عليه أنه أوصى بوقْف قرى كثيرة على سبيل البر ، وبِعتْق ستمائة مملوك ، وبأنواع من الخير . فقال القاضي : حتى يثبت عندي أن مؤنسًا حُرٌّ . وقال : إنه إن لم يرد عليّ كتاب من الخليفة بأنه أعتقه ، فلا أفعل . وكتب المقتدر إليه كتابًا ، فوصل الكتاب إلى مؤنس ، فاستدعى بعض الأمراء ليوصله إلى القاضي ، فامتنع هذا ؛ هيبةً منه ، فدعا تكين أمير مصر ، وحمله على أن يذهب إلى القاضي ويوصل إليه الكتاب ، فأتى تكينُ إلى القاضي ومعه الكتاب وناوله إياه ، فقال القاضي : ما هذا ؟ فقال : كتاب أمير المؤمنين . فقال : أمِنْ يدك ؟ فقال : بل من أيدي شاهدين عدلين يشهدان أنه كتاب أمير المؤمنين »[1] .

قاضي المرية بالأندلس : أبو عبد الله محمد بن يحيى بن البراء :

« كتب إليه سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين - فيمن كتب إليهم - بفرض معونة على الأهالي لأجل الجهاد ، فامتنع القاضي عن فرضها ، وكتب إلى أمير المسلمين بأنه لا يجوز له ذلك . فأجابه أمير المسلمين قائلًا له : إن القضاة عندي والفقهاء أباحوا فرضها ، وإن عمر بن الخطاب فرضها في زمانه . فراجعه القاضي بكتاب يقول له فيه : الحمد لله الذي إليه مآبنا وعليه حسابنا ، وبعد : فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخُّري عن ذلك ، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها ؛ فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية . فإن كان عمر اقتضاها ؛ فقد كان صاحب رسول الله ﷺ ، ووزيره ، وضجيعه في قبره ،

(١) مقدمة « محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي » للأمير شكيب أرسلان صـ٢٩-٣٠ ، دار مكتبة الحياة . بيروت .

ولا يُشكُّ في عدله ، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ ، ولا بوزيره ، ولا بضجيعه في قبره ، ولا ممَّن لا يُشكُّ في عدله . فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل ، فالله تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلُّدهم فيك . وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ ، وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم ، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم ؛ وحينئذ تجب معونته ... إلخ . فلمَّا بلغه هذا الكتاب وعظه الله بقوله ولم يُعِد عليه في ذلك قولًا »[١] .

الإمام الشهيد قاضي برقة : محمد بن الحُبُلي :

« أتاه أمير برقة - وكان من الفاطميين العبيديين - فقال : غدًا العيد . قال : حتى نرى الهلال ، ولا أُفطِّر الناس وأتقلَّد إثمهم . فقال : بهذا جاء كتاب المنصور . وكان هذا من رأي العُبيدية يفطرون بالحساب ، ولا يعتبرون رؤية ، فلم يُر هلال ، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبَة العيد . فقال القاضي : لا أخرج ولا أُصلِّي . فأمر الأمير رجلًا خطب ، وكتب بما جرى إلى المنصور ، فطلب القاضي إليه ، فأُحضر ، فقال له : تنصَّلْ ، وأعفو عنك . فامتنع ، فأمر ، فعُلِّق في الشمس إلى أن مات ، وكان يستغيث من العطش ، فلم يُسقَ ، ثم صلبوه على خشبةٍ . فلعنة الله على الظالمين »[٢] .

قاضي الجماعة بمراكش : أبو عبد الله بن علي بن مروان ، وحكايته مع أبي يوسف المنصور ملك الموحِّدين :

روى ابن خلكان عنه هذه الحكاية الرائعة وهي : « أن الأمير الشيخ أبا محمد

---

(١) مقدمة « محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي » لشكيب أرسلان صـ٣٠ - ٣١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/٣٧٤ .

عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية ، كان قد تزوَّج أخت الأمير أبي يوسف المنصور ، وأقامت عنده ، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها ، فسيَّر الأمير عبد الواحد لطلبها فامتنعت عليه ، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش أبي عبد الله بن علي بن مروان ، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له : إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله . فسكت الأمير أبو يوسف المنصور ، ومضى على ذلك أيام ، ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاءوني . فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له : يا أمير المؤمنين ، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله وهذه الثانية . فسكت الأمير يعقوب ، ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبدُ الواحد القاضيَ بالقصر المذكور ، وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور ، فقال له : يا قاضي المسلمين ، قد قلتُ لك مرتين وهذه الثالثة ، وأنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم . فاجتمع القاضي بالأمير وقال له : يا مولانا ، إن الشيخ عبد الواحد قد تكرَّر طلبه لأهله ، فإمَّا أن تسيِّر إليه أهله ، وإلا فاعزلني عن القضاء . فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، ما هذا إلا جدّ كبير . ثم استدعى خادمًا وقال له في السِّرِّ : تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه . فحُمِلت إليه في ذلك النهار »[(١)] .

فللَّه درُّه من قاض يبالغ في إقامة منار العدل .

القاضي المنذر بن سعيد البلوطي ، لله درُّه :

« وَلَيَ قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن الناصر ، وناهيك من عدْلٍ أُظهر ، ومن فضْل أُشهر ، ومن جَوْرٍ قُبض ، ومن حَقٍّ رُفع ، ومن باطلٍ خُفض .

---

(١) وفياتُ الأعيان ٧/ ١٠- ١١ .

كان مهيبًا صليبًا ، غير جبان ولا عاجز ، ولا مراقب لأحدٍ من خَلْق الله في استخراج حقٍّ ورفْع ظلم ، استعفى مرارًا من القضاء فما أُعفي »[1] .

« كان المنذر قاضي قرطبة وخطيب مسجدها الكبير ، وعندما أخذ الخليفة الناصر في بناء الزهراء ، انهمك في الإشراف عليها ، حتى تأخَّر عن حضور صلاة الجماعة – في يوم الجمعة – ثلاث جمع متواليات ، فأراد القاضي منذر أن يغضَّ منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة ، والتذكُّر بالإنابة والرجوع ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى : ﴿ **أتبنون بكلِّ رِيعٍ آيةً تعْبَثُون وتتَّخِذُون مصانعَ لعَلَّكُم تَخْلُدُون وإذا بطشتُم بطشتم جبَّارين فاتَّقوا اللهَ وأطيعون واتَّقوا الذي أمدَّكُم بما تعلمون أمدَّكُم بأنعامٍ وبنين وجناتٍ وعيون إني أخافُ عليكم عذابَ يوم عظيم قالوا سواءٌ علينا أوعظتَ أم لم تكن من الواعظين** ﴾ [الشعراء : ١٢٨ – ١٣٦] ، ثم وصله بقوله : فمتاع الدنيا قليل ، والآخرة خيرٌ لمن اتقى ، وهي دار القرار ، ثم مضى في ذمِّ تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته إلى أن وصل إلى قوله تعالى : ﴿ **أفمن أسَّس بنيانَه على تقوى من اللهِ ورضوانٍ خيرٌ أم من أسَّس بنيانَه على شفا جُرُف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القومَ الظالمين** ﴾ [التوبة : ١٠٩] ، ثم خوَّف بالموت ، ودعا إلى الزهد حتى خشع الناس ورقُّوا وبكَوْا ، وضجُّوا ودعَوْا وأعلنوا التضرُّع إلى الله في التوبة والابتهال في المغفرة ، وأخذ خليفتُهم من ذلك بأوفر حظٍّ ، وقد علم أنه المقصود به ، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه ، واستعاذ بالله من سخطه ، إلا أنه وَجَد – غضب – على منذر لغلظ ما قرَّعه به ، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر ، وقال : والله لقد تعمَّدني منذر بخطبته ، وما عَنَى بها غيري ، فأسرف عليَّ وأَفرطَ في تقريعي ، ولم يُحسن السياسة في وعْظي، فزعْزَع قلبي ، وكاد بعصاه يقرعُني . واستشاط غيظًا عليه ، فأقسم أن لا يصلِّي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة،

(١) نفح الطِّيب ١/٣٧٥ .

ويُجانب الصلاة بالزهراء . وقال الحكم : فما الذي يمنعك من عَزْل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذا كرهته ؟! فزجره وانتهره ، وقال له : أَمِثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه - لا أُمَّ لك - يُعزَل لإرضاءِ نفسٍ ناكبةٍ عن الرُّشد ، سالكة غير القصد ؟! هذا ما لا يكون ، وإني لأستحيي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه ، ولكنه أحرجني فأقسمتُ ، ولوددت أني أجد سبيلًا إلى كفارة يميني بملكي ، بل يُصلِّي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى ، فما أظنُّنا نعتاضُ منه أبدًا »[1] .

« وطلب الخليفة الناصر مرة إلى المنذر « الاستسقاء » واشتدَّ عزمه عليه ، فتسابق الناس للمصلَّى ، فقال للرسول - وكان من خواصِّ الناس -: ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا ؟ فقال له : ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا ، إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه ، لابس أخشن الثياب ، مفترش التراب ، وقد رقد به على رأسه وعلى لحيته ، وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول : هذه ناصيتي بيدك ، أُتراك تعذب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين ، لن يفوتَك شيءٌ مني ؟ فتهلَّل وجه المنذر عندما سمع ذلك وقال : يا غلام احمل الممطرة[2] معك ، فقد أذن الله بالسقيا ؛ إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبَّار السماء . وكان كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا »[3] .

قال ابن عفيف : من أخباره المحفوظة : أن أمير المؤمنين - الناصر - عمل في بعض سطوح الزهراء قبَّة بالذهب والفضة ، وجلس فيها ، ودخل الأعيان ، فجاء منذر بن سعيد ، فقال له الخليفة كما قال لمن قبله : هل رأيتَ أو سمعتَ أن

---

(١) عبد الرحمن الناصر ، لبسام العسيلي صـ١٠٦ - ١٠٨ .

(٢) الممطرة أو المِمطَر : ثوْب من صوف يُلبس في المطر ، يُتوقَّى به من المطر .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦/١٧٦ - ١٧٧ ، وعبد الرحمن الناصر للعسيلي صـ١٠٩ - ١١٠ .

أحدًا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا ؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدَّر ، ثم قال : والله ما ظننتُ يا أمير المؤمنين أن الشيطان - لعنه الله - يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكِّنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته وفضَّلك به على العالمين ، حتى يُنزلك منازل الكافرين . فانفعل عبد الرحمن لقوله : وقال : انظر ما تقول ، وكيف أنزلني منزلتهم ؟ قال : نعم ، أليس الله تعالى يقول : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أُمَّة واحدة لجعلنا لمن يكفُرُ بالرحمن لبُيُوتهم سُقُفًا مِن فضةٍ ومعارجَ عليها يظهرون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **والآخرة عند ربِّك للمتقين** ﴾ [الزخرف : ٣٣ - ٣٥] . فنكَّس الناصر رأسه طويلًا ودموعه تتساقط ، ثم قال : جزاك الله عنا خيرًا وعن المسلمين ، والذي قلتَ هو الحق . وأمر بنقض سقْف القُبَّة .

ووقف مرة إلى جانب الخليفة الناصر ، واستمع إلى ما قيل في مدح الزهراء ، فاهتزَّ الناصرُ وابتهج ، أما القاضي منذر فأطرق ، ثم قال منشدًا :

يا باني الزهراء مستغرقًا أوقاتَه فيها أما تمهلْ
لله ما أحسنها رونقًا لو لم تكن زهرتُها تذبُلْ

فقال الناصر : إذا هبَّ عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتْها مدامع الخشوع ، لا تذبُل إن شاء الله تعالى . فقال منذر : اللهمَّ اشهد أني قد بثثتُ ما عندي ولم آل نُصْحًا[1] .

القاضي الحافظ ابن أبي عاصم :

قال ابن أبي عاصم رحمه الله : وصل إليّ منذ دخلتُ إلى أصبهان من دراهم القضاء زيادة على أربع مائة ألف درهم ، لا يحاسبني الله يوم القيامة أني شربتُ منها شربة ماء ، أو أكلتُ منها ، أو لبست .

---

(١) السير ١٧٧/١٦ ، وعبد الرحمن الناصر للعسيلي صـ ١١٠ - ١١١ .

رحمك الله من قاضٍ ورع ، مجاب الدعوة ، إمام في الورع .

قال الكسائي : كنت عنده - يعني ابن أبي عاصم - فقال واحد : أيُّها القاضي ، بَلَغَنا أن ثلاثةَ نَفَر كانوا بالبادية ، وهم يقلبون الرَّمل ، فقالَ واحدٌ منهم : اللَّهم إنَّك قادرٌ على أن تطعمنا خبيصًا[1] على لون هذا الرَّمل . فإذا هم بأعرابي بيده طَبَقٌ ، فوَضَعَه بينهم ، خبيصٌ حارٌّ . فقال ابن أبي عاصم : قد كان ذاك .

كان الثَّلاثة : عُثمان بن صَخْر الزَّاهد ، وأبو تراب ، وابن أبي عاصِم ، وكان هو الذي دعا .

قال ابن أبي عاصم : صحبتُ أبا تراب ، فقطعوا البادية ، فلم يكن زاد إلا هذين البيتين :

رويدك جانبْ ركوبَ الهوى فبئسَ المطيَّة للراكبِ
وحسبُك بالله من مؤنسٍ وحسبُك بالله من صاحبِ

قال ابن أبي عاصم : ذهبت كتبي ، فلم يبق منها شيء ، فأعدتُ عن ظهر قلبي خمسين ألف حديث ، كنتُ أمُرُّ إلى دُكَّان البقال ، فكنتُ أكتب بضوء سراجه ، ثم إني تفكَّرتُ أني لم أستأذن صاحب السراج ، فذهبت إلى البحر فغسلتُه ، ثم أعدتُه ثانيًا[2] .

كان رحمه الله قاضيًا ثلاث عشرة سنة ، وكثُرت الشهود في أيامه .

القاضي الخيَّاط : أبو عبد الله محمد بن علي المروزي :

أحد السادات الأولياء، عُرف بـ«الخيَّاط»؛لأنه كان يخيط على الأيتام والمساكين حسبة .

---

(١) الخبيص : الحلواء المخبوصة من التمر والسمن .
(٢) السير ١٣/ ٤٣٣ .

ولي قضاء القضاة بنيسابور في سنة ثمان وثلاثمائة ، إلى أن استُعفي سنة إحدى عشرة ، فما شرب لأحدٍ ماءً ، ولا ظُفِر له بزلَّة ، وكان لا يدعُ سماع الحديث أيام قضائه ، ويحضر مجلس أبي العباس السرَّاج .

قال محمد بن عبدان خادم الجامع : كان محمد بن علي الحاكم يجيء في كلِّ أسبوع ليلة إلى الجامع ، فيتعبَّد إلى الصباح من حيث لا يعرف غيري ، فصادفتُه ليلةً يتلو : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل اللهُ فأولئك هُمُ الكافرون** ﴾ [المائدة : ٤٤] وكلما تلا آيةً منها ، ضرب بيده على صدره ضربةً أسمعُ صوتَها من شدَّته. رحمه الله تعالى .

قال الحاكم : سمعتُ أبي يقول : كان القاضي محمد بن علي المروزي طول أيامه يسكنُ دار ابن حمدون بحذاء دارنا ، وكنتُ أعرفه يخيط بالليل وإذا تفرَّغ بالنهار للأيتام والضعفاء ، ويعدُّها صدقة[١] .

القاضي أحمد بن بقيّ بن مخلد :

أبو عمر القرطبي ، كبير علماء الأندلس وقاضي قرطبة .

قال ابن عبد البر: كان وقورًا حليمًا، كثير التلاوة ليلًا ونهارًا، **قوي المعرفة** باختلاف العلماء، ولي القضاء عشرة أعوام ما ضرب فيها- فيما قيل- سوى واحد مُجْمَعٌ على فسقه ، وكان يتوقَّف ويتثبت ، ويقول : التأني أخلص ؛ إن النبي ﷺ لمَّا أشكل عليه أمر حديث حُوَيِّصة ومُحيِّصة وَدَىٰ القتيل من عنده[٢] .

قاضي القيروان محمد بن أبي المنظور الأنصاري :

كان رحمه الله من كبار أصحاب الحديث ، قد لقي إسماعيل القاضي والحارث

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٥٦٤ - ٥٦٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد ، وفي الأدب ، وفي الديات باب القَسَامة ، وفي الأحكام . وأخرجه مسلم . انظر السير ١٥/٨٣-٨٤ .

ابن أبي أسامة. ولَّاه المنصور الفاطمي قضاء القيروان، فقال: بشرط أن لا آخُذ رزقًا ، ولا أركب دابَّةً . فولَّاه ليتألّف الرعية ، فأُحضر إليه يهودي قد سبَّ النبي ﷺ ، فبطحه ، وضربه إلى أن مات تحت الضرب .

وأتى يوما فوجد سلاف داية السلطان تشفع في امرأةٍ نائحة فاسقة ؛ لِيُطْلِقها من حبسه فقال : ما لك ؟ قالت : قضيب[1] محبوبة المنصور تطلب منك أن تُطْلِقَها . فقال : يا مُنْتِنَة ، لولا شيء لضربتُك ، لعنك الله ولعن مَن أرسلك . فوَلْوَلتْ ، وشقَّتْ ثيابها ، ثم ذكرت أمرها للمنصور ، فقال : ما أصنع به؟ ما أخذ منَّا صِلَةً، ولا نقدر على عزله؛ نحن نُحِبُّ إصلاح البلد[2] .

قاضي القضاة شيخ الشافعية : الحموي :

أبو بكر محمد بن المظفر الشامي الحموي الزاهد .

قال السمعاني : هو أحد المتقنين للمذهب ، وله اطلاع على أسرار الفقه ، وكان وَرِعًا زاهدًا مُتَّقِيًا شديد الأحكام .

قال أبو علي الصَّدفي : هو وَرِعٌ زاهد . وأما الفقه ، فكان يُقال : لو رُفع مذهب الشافعي لأمكنه أن يمليه من صدره .

قال السبكي في طبقات الشافعية (٤/٢٠٣ - ٢٠٥) : « كان من قضاة العدل ، واتَّفقت منه محاسن أيام قضائه . امتنع الشامي من قبول القضاء فما زالوا به حتى تقلَّده ، وشرط أن لا يأخذ رزقًا ، ولا يقبل شفاعةً ، ولا يُغيِّر ملبوسه ؛ فأُجيب إلى ذلك .

قال عبد الوهاب الأنماطي : لم يكن الشامي يبتسم في مجلسه قط وكان له كراء بيت في الشهر بدينار ونصف ، وكان منه قوته ، فلمَّا ولي القضاء جاء إنسان ،

---

(١) اسم جارية أخرى للمنصور ليس عنده أعزُّ منها .
(٢) السير ١٥/١٥٧ - ١٥٨ .

فدفع فيه أربعة دنانير ، فأبى وقال : لا أُغيِّر ساكني ، وقد ارتبت بك ، لِمَ لا كانت هذه الزيادة قبل القضاء ؟!

وكان يشدُّ في وسطه مئزرًا ، ويخلع في بيته ثيابه ثم يجلس .

قال ابن النجار : ما استناب أحدًا في القضاء ، وكان يُسوِّي بين الوضيع والشريف في الحكم ، ويقيم جاه الشرع ، فكان هذا سبب انقلاب الأكابر عنه ، فألصقوا به ما كان منه بريئًا .

قال ابن الآبنوسي : كان له كيسان ؛ أحدهما يحمل فيه عمامته وقميصه - والعمامة كتان ، والقميص قطن خشن - فإذا خرج لبسهما ، والكيس الآخر فيه فتيت ، فإذا أراد الأكل جعل منه في قصعة ، وقليل من الماء ، وأكل منه .

وكان يقول : ما دخلتُ القضاء حتى وجب عليَّ ، ويقول : أعصي إن لم أَلِ القضاء .

وقعت حادثة للسلطان ملكشاه ، فحُمِل قاضي القضاة الشامي إلى دار السلطان ليقضي في تلك الحادثة ، فجاء المشطَّب بن محمد بن أسامة الفرغاني أحد فحول المناظرين من الحنفية - وكان ذا جاهٍ عريض ، وملازمة للسلطان - فشهد بين يديه ، فقال الشامي على رؤوس الخلائق : لا أقبل شهادته.فقالوا : لِمَ ؟ قال : لأنه فاسق . وكان على المشطَّب ثوب حرير ، فخجل المشطب من ذلك .

وجاء أمير من الأتراك وادَّعى على واحدٍ شيئًا ، فقال الشامي للأمير : ألك بيِّنَة ؟ قال : بلى . قال : من هما ؟ قال : فلان والمشطّب . فقال الشامي : لا أقبل شهادة المشطب ؛ لأنه يلبس الحرير . فقال المشطَّب : تردّني ، والسلطان ووزيره نظام الملك يلبسانه ؟! فقال الشامي : لو شهدا عندي ما قبلتُ شهادتَهما .

وفي المنتظم (٩/٩٦) ، وابن الأثير (١٠/٢٥٣) : لو شهدا عندي في باقة بقْل ، ما قبلتُ شهادتهما » .

القاضي الحافظ أبو أحمد العسَّال :

أحد الأئمة في علم الحديث ، « وكان يحفظ في القرآن سبعين ألف حديث ، وما كان يجلس لإملاء الحديث ولا يمس جزءًا إلا على طهارة . وإنه كان مرة مع صهره ، فدخل مسجدًا ، وشرع في الصلاة ، وختم القرآن في ركعة.

كان رحمه الله لا يُغلق بابه عن أحد ، ولي القضاء بأصبهان وكان إذا توجَّه على الخصم يمين لا يُحَلِّفه ما أمكنه ، بل يُغرم عنه ما لم يبلغ مائة دينار ، فإذا بلغ المائة أو جاوزها ، كان يتثبَّتِ ويُدافع ويُمهل إلى المجلس الثاني ، ويُحذِّر المدَّعى عليه وَبَالَ اليمين ، ويُخوِّفه يوم الدين ، ويذكِّره الوقوف بين يدي ربِّ العالمين ، ثم يُحلِّفه على كُرْه »[1] .

الإمام القاضي أبو سعيد السِّيرافي :

الحسن بن عبد الله النحوي البغدادي .

كان من أعلم الناس بنحو البصريين ، وألَّف كتاب « شرح كتاب سيبويه » ، و لم يشرح أحد كتاب سيبويه أحسن منه ، ولو لم يكن له غيره فضلًا لكفاه .

كان زاهدًا لا يأكُل إلا من كَسْب يده ، ولا يخرُج من بيته إلى مجلس الحُكم ولا إلى مجلس التدريس كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات ، يأخذ أجرها عشرة دراهم ، تكون قَدْر مئونته ، ثم يخرج إلى مجلسه[2] .

العز بن عبد السلام : بائع الملوك والأمراء :

ولا يزال بسمع الأيام ما فعل سلطان العلماء وبائع الملوك والأمراء ،

---

(١) السير ١٦/٩ - ١٠ .

(٢) صفحات من صبر العلماء لأبي غدة صـ٢٠٢ - ٢٠٣ .

القاضي العز بن عبد السلام مع أُمراء مصر وبَيْعهم ، وقد مرَّت من قبل هذه الحادثة الفريدة في تاريخ القضاء .

وكم من قضاةٍ زيَّنوا وجه التاريخ ، لا يسع المقال هنا لذكرهم، فهو يحتاج إلى مجلدات : ابن جماعة ، والماوردي ، وابن دقيق العيد، وغيرهم وغيرهم .

القاضي جُميع بن حاضر الباجي ؛ يحكم بطرد المسلمين من سمرقند؛ واقعة صحيحة أشبه بالأساطير وأطيب من الشهد :

« قال أبو عبيدة وغيره : لما استُخلِف عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وفد عليه قوم من أهل سمرقند ، فعرَّفوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدْرٍ ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيًا ، ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أُخرجوا ، فنصب لهم جُميع بن حاضر الباجي ، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكَرِه أهل مدينة سمرقند الحرب ، وأقرُّوا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم »[1] .

* * *

(١) كتاب فتوح البلدان للبلاذري صـ٤١١ .